العناصر الثلاثة للقومية المصرية

أولا — الوجود المستمر للجماعة المصرية

إن أردت تصور القومية المصرية ، أو حاولت تصويرها ، فإنك واجد رمزها الرائع ، وتصويرها الجامع فى تمثال «مختار» .

الفلاحة المصرية ، تعتمد بيمينها على دعامة مصرية ، وهى ترمى ببصرها أقصى الأفق .

هذه الفلاحة هى الأم التى ولدت لمصر أبناءها وبناتها على ضفاف النيل ، جيلا بعد جيل ، فى خلال العُصُر المتعاقبة ، وهى التى كانت نائمة فاستيقظت واستوت قائمة .

لم تنقطع صلتها بالماضى ، فإنها ما زالت تستند إليه ، ولا هى تقيدت بالحاضر ، راضية بالتلفت حواليها ، أو قانعة بالنظر تحت قدميها ، ولكنها تتطلع للأمام ، ناظرة إلى المستقبل .

إنها تربط الماضى بالحاضر ، وتصل الحاضر بالمستقبل

ولكن . . . ما الحاضر ، وما الماضى ، وما المستقبل ؟

أليس الحاضر لحظة مجردة من الامتداد الزمنى ، تجرُّد النقطة الهندسية من الأبعاد ؟

ثم ، أليس الماضى بدوره لحظة مجردة من الامتداد الزمنى ، كانت الحاضر ، فتراجعت لتحل مكانها — فى تصورنا — لحظة أخرى مثلها ، كانت المستقبل فأصبحت الحاضر ؟

وإذن ففى وسعنا أن نتصور أن الماضى والحاضر والمستقبل ، تلتقى وتندمج فى لحظة واحدة مجردة من الامتداد الزمنى .

ولئن صح هذا التصور بالنسبة لحياة الفرد — وهو صحيح — فإنه بالنسبة لحياة الأمة أكثر صحة، وأوضح أثراً.

فالمصرى الذى يعيش اليوم، ليس لَبِنَةً مستقلة فى بناء القومية المصرية الحاضرة، منفصلة عن الماضى، منقطعة الصلة بالمستقبل؛ ولكنه لباب الماضى ومساك الحاضر، ونواة المستقبل. مثله كمثل اللحظة الزمنية، يلتقى فيه الماضى بالحاضر، ويتصل عنده الحاضر بالمستقبل.

والأمة المصرية ليست أفرادها الذين يعيشون الآن، ولكنها أفرادها الذين ماتوا، والذين وُلدوا، لا فى هذه الساعة وحدها، (ومصر تلد فى الساعة حوالى ثمانين وتشيّع نيّفا وخمسين) بل فى خلال الأجيال الماضية كلها، وأفرادها الذين سوف يولدون فى الأجيال القادمة جميعها.

ولئن قسنا عدد الأحياء من المصريين فى هذه اللحظة، بعدد الذين عاشوا فى القرون الخوالى بأسرها، وجدنا أن هذه الملايين من الأحياء، التى تعد على أصابع اليد الواحدة ثلاث مرات أو نحوها، لا تعدو أن تكون قطرة فى محيط زاخر بألوف الملايين، بل بملايين الملايين، ممن اشتركوا بالأمس، أو ممن سوف يساهمون غدا فى تكوين القومية المصرية وتشكيلها وتلوينها، على كرّ الغداة ومرّ العشىّ.

فالقوم الذين يعيشون اليوم فى مصر، ويعرفهم العالم باسم المصريين، ليسوا إذن مصريى القرن العشرين وحده، ولكنهم مصريو الحقب الخوالى والعصور التوالى. هم مصر الغابرة، وهم مصر الحاضرة، وهم مصر المستقبلة.

والقومية المصرية، أى الرابطة بين الفرد المصرى والجماعة المصرية، شىء مركوز فى كيان الأفراد المصريين.

ذكريات كل مصرى، وتقاليده، ومعتقداته، هى التى يتكون من مجموعها ذكريات الجماعة المصرية، وتقاليدها، ومعتقداتها.

فالقومية فى داخلنا، فى صميم كل فرد منا، ولكنها أسمى من تفكير أى فرد فينا، وأوسع من فهم جميعنا.

عاش أجدادنا وآباؤنا على ضفاف هذا النيل منذ ألوف السنين، يتلقون فيضه فى أجل معلوم، وينعمون بشمس مصر يقطع قرصها الساطع سماءهم الصافية مرة فى كل نهار، ويسعدون بالوادى الخصيب المنبسط، لا تتبدل طبيعته ولا تتغير

معالمه . لا زلازل ولا براكين تهدم ما شادوه ، ولا صواعق ولا أعاصير تخرب ما عمروه ؛ فأخلاقهم موسومة بطابع الاستمرار والاستقرار ، وقلوبهم مشربة بحب النظام ، مفعمة بحب الأسرة ، مطبوعة على تذوق الجمال ، ونفوسهم فياضة بالولاء لنظم يجلونها ، ومؤسسات يؤثرونها ، ومعتقدات يدينون بها ، جعلت منهم قوما متجانسا ، وقومية قوية لعلها أقدم القوميات وأمجدها وأخلدها .

فقد عرفنا الله وعبدناه ووحّدناه ، وأدركنا الروح والخلود ، وآمنا بالبعث فى اليوم الموعود ، واستأنسنا القمح واستنبتنا أفخر سلالاته ، وبنينا وشيدنا ، ونحتنا وصوّرنا ، وكتبنا ودوّنا ، وقسنا وأحصينا ، وحسبنا الشهور والسنين وشرعنا وطببنا ، وفكرنا وألّفنا ، حين كان البشر نياما ، وكانت الدنيا جهلا وظلاما .

وإن التاريخ ليدحض دعوى المتحاملين على القومية المصرية ، ويفنّد مفتريات القائلين بأننا قوم طال عهدنا بسيطرة الغزاه ، والخضوع لحكم الطغاه ، حتى فقدنا قوميتنا ، واستحلنا مجموعة من أفراد متعددة عناصرهم ، متنافرة مواردهم ومصادرهم .

فما هبط وادينا شعب ، مستوطنا أو فاتحا ، إلا طويناه وتمثلناه ، وطبعناه بطابعنا ، وصغناه فى قالبنا ، وأدمجناه فى قوميتنا .

صنعنا هذا بالهكسوس ، والاثيوبيين ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، والأتراك ، واحتفظنا دائما بأشكالنا وسحننا ، ومعظم تقاليدنا وعاداتنا . حتى المسيحية والإسلام ، لم يكد يغير دخولهما البلاد من أخلاقنا القومية ، إلا قليلا .

أما الذين لم يتأقلموا ، فإنا لم نلبث طويلا حتى لفظناهم وتخلصنا منهم ، كما حدث مع الفرنسيين ثم الانجليز من بعدهم .

ثانيا — الشعور بالجماعة

وهو وجود فكرة الجماعة المصرية فى عقول أفراد المصريين ، وفهمهم طبيعتها وتكوينها وحقوقها ومطالبها .

وحسبُنا أن نضرب لهذا الشعور مثلا ، النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ .

لم تكن تلك النهضة مجرد اتجاه مجموع إرادة المصريين نحو الاستقلال ، بل كانت اتجاه إرادة جميع المصريين نحو الاستقلال ؛ إذ كان الدافع لهذه الإرادة الجماعية دافعا واحدا منبعثا من يقظة الشعور العام ، ولم يكن دوافع منوعة تختلف باختلاف الأفراد ، وإن اتجهت كلها نحو هدف واحد .

الفلاحة التى ظنوها ميتة ، كانت نائمة فصحت واستوفزت واستوت واقفة تتوكأ على ماضيها وتتطلع إلى مستقبلها ، بعد أن تأصلت فكرة الأمة فى عقول الأفراد الذين تتكون منهم الأمة ، وأصبحت هذه الفكرة نواة لعاطفة قوية ، تحرك دوافع قوية ، وتتغلب على سائر الدوافع ، وتتحكم فيها وتسيطر عليها .

اضمحلت النزعة الفردية ، وانطوت المصلحة الشخصية ، فاندمجت فى نزعة الجماعة ، وانضوت تحت لواء المصلحة العامة ، وأصبح المصرى يرى نفسه جزءا لا يتجزأ من الجماعة المصرية ؛ وبعد أن كان شعور المصرى « أنانيا » فى شخصه أضحى شعوره «أنانيا» فى الجماعة ، فجاوز حدود نفسه ، وتخطى نطاق أسرته ، وانبعثت فيه دوافع العمل لمصلحة قومه وأمته .

زادت معرفة الفرد المصرى بالجماعة المصرية ، وتضاعف اعتزازه بلغته ، وقوى احترامه لتقاليده ، واشتد حرصه على محبة الأمة المصرية والاندماج فيها والتجانس معها ، ونشط للقضاء على ما عساه أن يشوب وحدتها من عوامل التفرقة ، بسبب اختلاف الدين ، أو الفوارق الاجتماعية وما إليها .

شعر المصريون بأن للأمة المصرية عمراً أطول من عمر أفرادها ، وأنها وجدت قبل أن يولدوا ، وأنها مستمرة بعد أن يلقوا ربهم ، وأيقنوا أنهم باندماجهم فيها يعظمون ويخلدون ؛ فاتخذوا للأثرة الفردية فلسفة جديدة ، هى الأثرة الجماعية ، وطابت نفوسهم بالتضحيات حتى روّت دماؤهم شجرة القومية المصرية ، فإذا أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

وكانت يقظة « الشعور السياسى » أول ثمار هذه الشجرة المباركة ، فعم الجماعة المصرية بأسرها ، وسيطر على تصرفاتها . ولا غرابة ، فقد كان أجدادنا أسبق الناس إلى التأثر بالشعور السياسى ، فاتخذ هذا الشعور فى عقلنا القومى مظهراً شبيهاً « بأساليب التفكير الدائم » .

ولربما ظل هذا الشعور خامداً عدة أجيال ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الظهور بكامل قوته ، حين توافرت له الظروف الملائمة . و « الوطنية » أهم مظاهر

« الشعور السياسى » ؛ فإن الطفل يحمل معه منذ العصور المتوغلة فى القدم نزعة الولاء للجماعة التى يعيش فيها . ولئن صح ما يقوله علماء التاريخ الطبيعى من أن « الحقوق الإقليمية » معترف بها بين الحيوانات العليا ، فلا يبعد أن تكون الوطنية قد انتقلت إلينا بالوراثة من عصور ما قبل التاريخ .

وتنطوى الوطنية على « حب عاطفى لبلدنا » ، وهى عاطفة مركوزة فى العقل الانسانى ؛ لذلك لم يكن تشويه برامجنا التعليمية ، ولا مسخ التاريخ المصرى فى مدارسنا ، ولا محاربة الوطنية فى نفوس الأجيال السابقة على الثورة ، ليؤثر فى محبة المصريين لوطنهم ، وقيامهم كفرد واحد للدفاع عن حقوقه .

وكما تنطوى الوطنية على حب عاطفى للبلد او الوطن ، فإنها تشمل أيضا « الشعور بالولاء نحو الوطن ، والشعور بالولاء للمواطنين » . شعور بالولاء نحو الوطن ، شبيه بشعور الولاء للأسرة ، وشعور بالولاء نحو المواطنين ، شبيه بشعور الولاء قبل الزملاء فى الصناعة ، والإخوان فى المهنة ؛ فهو جزء من « غريزة الاجتماع » ولون من « غريزة المحافظة على النفس » ، أو هو على الأقل مرتبط بهما .

وهذه الناحية من الشعور الوطنى ، أى هذا الولاء للوطن ، والولاء للمواطنين ، هو ضرورة لازمة لتكييف تصرفات المواطنين بإزاء الشئون العامة والمسائل السياسية ، وهو أصل شعورهم بالولاء نحو حكومة البلاد ، أى نحو العرش والدستور والبرلمان والوزارة .

فلم تكد تشب الثورة ، أى لم تكد تتحرك المشاعر السياسية للمصريين ، حتى اشترك أبناء البيت العلوى فى الحركة الوطنية ، واشتركت الحكومة مع الوطنيين فى المطالبة بحقوق البلاد ، وقويت الروابط إلى حد الاندماج بين ما كانوا يسمونه عنصرى الأمة ؛ إذ تبين أن الأمة ليس فيها عنصران ، بل عنصر واحد هو العنصر المصرى ؛ وضعف الشعور بالفوارق بين مصرى ومصرى ، سواء أكانت فوارق اقتصادية أم علمية أم اجتماعية ، وقوى الشعور بضرورة إزالة هذه الفوارق عن طريق رفع المستوى العام للطبقات الفقيرة والجاهلة ، وأصبحت الوطنية دين الجميع ، والوطن قبلة الجميع ، والقومية المصرية شعار الجميع .

ومما يرتبط بالوطنية ويكاد يتحد وإياها ، شعور اصطلحنا على تسميته « العزة الوطنية ، أو الكرامة القومية » .

وهو شعور قد يظل كامناً عدة قرون ، فإذا صادف الحافز الملائم ، ورى شراره ، واندلع أواره ، وتأججت ناره ، حتى إذا تولته القيادة القوية الأريبة ، استكمل عناصره ، وصهر الروح القومية فصفى شوائبها ، وسما بها إلى عليين.

وما الكرامة القومية غير إحساس هدفه تحقيق الرضا القومى . وكما أن من مظاهر احترام النفس أن يسكن الإنسان الدار التى يختارها ، ويرتدى الملابس التى يجدها لائقة ، فإن من مظاهر الكرامة القومية أن يختار الفرد الحكومة التى يعيش فى كنفها ، ويدين بالولاء لها . على أن يكون رجالها من بنى جنسه ، يتكلمون لغته ويشعرون شعوره ؛ لأن المواطن ينظر عادة إلى حكومته كأنها جزء من نفسه ، وبضعة من حسه ، وقطعة من ماله وملكه .

وقد كان ليقظة شعورنا بالكرامة القومية ، الأثر البالغ فى حياتنا الوطنية ، فاستردنا استقلالنا ، وانطلقت أيدينا فى إدارة بلادنا وتمثيلها لدى الدول الأجنبية ، وأصبح لنا دستور وبرلمان واشتراك فعلى فى الحكم ، قوامه الاقتراع العام ، والمسئولية الوزارية .

ثم تلا ذلك إلغاء الامتيازات الأجنبية ، فخلص بذلك شرفنا القومى من أذى المذلة أمام الأجنبى ، الذى كان يعيش بيننا دون أن يخضع لتشريعنا الجنائى أو المالى ، أو يحاكم أمام قضائنا الوطنيين ومحاكمنا الوطنية .

وها نحن أولاء قد تخلصنا من ديننا الدولى ، الذى كانت مذلته تطوق عنق كل مصرى ، وأصبحنا على أبواب الحدث العظيم الذى نستكمل به استقلالنا تامًّا خالياً من كل شائبة .

ثالثاً — التنظيم والقيادة

هو العنصر الذى لا غنى عنه لأى جماعة تريد القيام بعمل قومى جماعى .

وقد أتيح لمصر فى فجر نهضتها الحديثة عدد من أبنائها ، مثلوا وحدة الشعب المصرى ، وعبروا عن شعوره الوطنى والسياسى ، واشتركوا فى تنظيم الحركة القومية ، وساهموا فى إذكاء روحها ، ونجحوا فى توجيهها وجهة مباركة .

ولئن صح لنا أن نحدد وقتاً معيناً لابتداء يقظة « الشعور بالجماعة » ، وهو ثانى عناصر القومية المصرية ، فإنا نرجح أن يكون سعيد باشا أول حاكم من

أسرة محمد على ، ربط مصلحته بمصالح شعبه باعتباره مصريًا ، وقطع على نفسه العهد بأن يتولى المصريون تدريجاً جميع مرافق الدولة ، ونزل عن ملكية الأراضى المصرية للمصريين .

ولا ننسى للخديو إسماعيل ، دعمه شخصية مصر كدولة مستقلة ، بما استخلص من حقوقها ، وأن أول برلمان مصرى انتخب فى عهده ، وأنه أول من اعترف بمبدأ المسئولية الوزارية ، وفى أيامه جاءنا جمال الدين الأفغانى ، الذى تخرج عليه زعيم النهضة السياسية ، وزعيم النهضة الدينية ، وزعيم النهضة النسوية .

وهكذا مهّد عهد سعيد وعصر إسماعيل ليقظة الشعور القومى ، وقدّما لظهور عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول .

وها هو ذا صاحب الجلالة المصرية ، الملك فاروق الأول ، يضرب لشعبه المجيد المثل فى الوطنية ، والقومية المصرية .

هذه هى العناصر الثلاثة للقومية المصرية . وإنا لنرجو أن نتناول فى مقال آخر ، « نواحى الضعف فى القومية المصرية » .

رياض شمس